

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إني جاعل في الأرض خليفة

كان الله ولم يكن معه شيء

قبل آدم، قبل الملائكة، قبل السموات والأرض، لنبدأ
بالحديث عن الله ﷻ: «كان الله وحده».

لا سماء، لا أرض، لا بحار، لا مجرات، لا كواكب، لا
نجوم، لا هواء، لا ماء، لا شيء، كان الله وحده. ﴿هَلْ أَتَى عَلَى
الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]، نعم يا
رب جاء علينا وقت لم نكن شيئاً مذكوراً، «كان الله وحده».

جاء وفد اليمن إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، جئناك
نتفق بالدين، وجئنا نسألك عن أول هذا الأمر، أي: بداية هذا
الكون، فقال لهم النبي ﷺ: «كان الله ولم يكن معه شيء ولم يكن
هناك غيره»⁽¹⁾. رواه البخاري.

فأمام كل ما وصلنا إليه من تكنولوجيا نبقى لا شيء. كل هذا

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3191).

جديد على الكون، فهل عرفت معنى قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62]. فهل تشعر الآن معنى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: 67].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: صعد رسول الله ﷺ مرة إلى المنبر، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، وهو يخطب بأعلى صوته: «يمجد الله تعالى نفسه فيقول: أنا القوي أنا العزيز، أنا الجبار، أنا الأول، أنا الآخر، أنا المبدئ أنا المعيد»⁽¹⁾. ويقول عبد الله بن عمر رضي الله عنه: فرأيت رسول الله ﷺ يصعد بأسماء الله تعالى حتى رأيت المنبر يرجف برسول الله ﷺ. - الخشب خَشِعَ، الخشب أحس بجلال الله تبارك وتعالى - حتى قلت: النبي سيقط من على المنبر، فجئت تحت المنبر خشية أن يسقط النبي ﷺ.

فنحن أين كنا؟ عدم، الكون أين كان؟ عدم. كان الله ولم يكن معه شيء. والكون كله الذي نراه الآن كان في حالة سكون، حتى نُفِخَ في سيدنا آدم، وبدأت الحياة.

بدأ العمل، بدأ آدم يزرع وينتج، وسيتهي الكون بماذا؟ بنفخة أيضاً.

(1) أخرجه الإمام أحمد في (الحديث: 2/ 72)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (7/ 105).

سبحان الله! بدأ الكون بنفخة في آدم وسينتهي بنفخة أيضاً:
﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: 68].

وينادي الله تبارك وتعالى: من بقي؟ فيقول: بقي جبريل وميكائيل وعبدك ملك الموت يا رب. فيأمر بروح ميكائيل فتقبض، ويأمر بروح جبريل فتقبض، فيقول: «من بقي؟»، فيقول: عبدك يا رب، فيقول: «اقبض روحك». فينادي الله تبارك وتعالى: **﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾** [غافر: 16]، فلا يجيب أحد لأنه لا يوجد أحد. فيجيب الله تبارك وتعالى: **﴿لِلَّهِ الْوَحْدُ الْقَهَّارِ﴾**، فهل عرفت الآن معنى اسم الله الأول والآخر.

انظر حديث النبي ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»⁽¹⁾.

فهل عرفت معنى المبدئ المعيد؟ **﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾** [الروم: 27]. يبدأ خلق كل شيء، الهواء، الماء، الرياح، الرمال، الكواكب، النجوم، المحيطات.

هذا اسم الله الواحد الخالق، كل هذا وآدم لم يُخلَقْ بعد، أكل هذه من أجلنا يا رب؟

ويقول النبي ﷺ: «ما السماء الأولى في السماء الثانية إلا كحبة

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (الحديث: 524/1).

في صحراء، وما الثانية في الثالثة إلا كحبة في صحراء، وما الثالثة في الرابعة إلا كحبة في صحراء، وما السابعة في الكرسي إلا كحبة في صحراء ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما الكرسي في العرش إلا كحبة في صحراء، وما العرش في كف الرحمن إلا كحبة في صحراء⁽¹⁾.

نكلم مهيئك أنت حتى تقول له: لا، لن اطيعك.

ادخل على الله بمبدأ الطاعة والتذلل، يا رب سوف اطيعك ولن أعصيك أبداً، انس قيمة نفسك، انظر الى الله ﷻ فقط، ولا ترى أصداً سواه.

قدر فيها اقواتها

وقبل خلق آدم قسّم الله الأرزاق على العباد. وقدر الأقوات في الأرض. يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ۝٩﴾ [فصلت: 9].

لكن تذكر ليس معنى هذا أن لا نعمل، بل هي دعوة للعمل، فلا تغضب لأنك قليل الرزق؛ لأن الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: 10].

وتذكر أن العبرة في البركة، وليست العبرة في الأرزاق، فقد يؤتيك مالاً كثيراً بغير بركة، وقد يؤتيك مالاً قليلاً كله بركة، من

(1) ذكره السيوطي في «الدر المشور» (الحديث: 298/3).

أجل ذلك وضعت آية البركة قبل الأقوات. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12]، توضع القوانين في الأرض من أجلك يا ابن آدم.

ويأمر الله الكون بالخضوع قبل خلق آدم: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

اخضع لله هكذا يا عبدا قل له: ليس لي أحد سواك. ويبدأ الكون كله بتسبيحه سبحانه وتعالى: ﴿سُبُّحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا خَلْقًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٨﴾ [الحج: 18].

من ملايين السنين والكون خاضع لله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: 40].

فلتعلم منذ اليوم عبادة رائعة جداً، عبادة الخضوع لله، ﴿بِأَيِّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ [فاطر: 15]، والرسول ﷺ كان يدعو الله: «اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك»⁽¹⁾ تعلم الخضوع من سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، وقال سبحانه وتعالى عن أهل بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123]، أي عندما أحسوا واستشعروا بمعنى الخضوع لله ﷻ، نَصَرَهُمْ.

خُلِقَ الكون فخضع وسجد لله تعالى، وكل ذلك تمهيداً

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 391/1)، و(الحديث: 452/1).

لخلقك... تمهيداً لبيان لك كيف تعبدته وتلجأ إليه.

فألهمنا إلى الله تعبه دائماً أمامك ويكون لك خير ناصر.

الكون أصبح مهياً لخلق آدم وعمارة الأرض

أحبائي لقد خلق الله ﷻ هذا الكون، ومهّده لنعيش فيه بسلام، لا ينقصنا سوى السعي وراء الرزق الذي أعدّه الله لنا، فالكون أصبح الآن مهياً لخلق آدم ولعمارة الأرض.

وقبل هذا كله، «كان الله ولم يكن معه شيء»⁽¹⁾. فخلقت الجبال والبحار والهواء والمجرات وكلّ يهيء الحياة لآدم ونسله، وكتب كذلك الخضوع على الأرض والسموات لله ﷻ بكل ما فيهما ﴿قَالَتْ أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، ووضعت القوانين العلمية كلها من أجل هذا الكون وساكنه من بعده. يبدأ التسبيح والإجلال لله تبارك وتعالى.

حاول أن تتخيل أنك كنت موجوداً وقتئذٍ، ترفع رأسك فترى السماء أصبحت فوقك وفجأة ترى الجبال قد تَكَوَّنت، وكذلك البحار، كل شيء، وتستغرب أن الكون كله يستبح لله ﷻ، والعجب أنك أنت لا تُسبح له سبحانه وتعالى.

كل هذا وآدم لم يُخلق بعد.

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3191)، وأخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 3/9)، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 205/18).

خلق الأمور المعنوية

تبقى أشياء معنوية ستهياً قبل خلق آدم أيضاً، فما هي هذه الأشياء؟

١ - الرَّحْم:

قالت الرحم عندما تعلق بالعرش: «يا رب، هذا مقام المستجير بك من القطيعة». فانتبهوا إلى صلة الأرحام، يا إخواني. «فقال الله ﷻ: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ فقالت: بلى رضيت يا رب، قال: فلك ذلك»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 22]، فتخيل تلك الصلة بين الفساد في الأرض وتقطيع الأرحام! ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: 23].

ويقول النبي ﷺ: «إن للرحم لساناً تحت العرش يوم القيامة تقول: يا رب، قُطِّعْتَ، يا رب: ظَلِمْتَ، يا رب: أُوذِيت، فيقول الله تبارك وتعالى: أما ترضين أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك؟ فتقول: بلى يا رب، فيقول: لك ذلك»^(١).

تفصيل، الكلام ذاته الذي قيل لها منذ بداية الخلق، سيقال لها عند انتهاء الخلق يوم القيامة.

هل تسمع هذا الكلام؟

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (الحديث: 64/6).

٢ - باب التوبة:

خلق الله قبل آدم باباً يقال له: باب التوبة. وقد أخبر عنه رسول الله ﷺ في حديثه: «لما خلق الله السموات والأرض خلق باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً تركه مفتوحاً، خلقه من جهة المغرب»، فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما الباب؟»، فقالوا: لا يا رسول الله، قال: «الباب هو التوبة»⁽¹⁾.

تصور، عرضه سبعين سنة، وماذا فعلت أنت حتى لا يسعك هذا الباب؟!

ولماذا من جهة المغرب؟ لأن الشمس تطلع من المشرق، فحين تطلع الشمس من المغرب يُسد هذا الباب ويحجب عن المتأخرين في التوبة، ألم يقشعر بدنك لمثل هذا الكلام بعد؟ تخيل، صلة الرحم، التوبة، وأنت لم تخلق بعد. تب إلى الله من كل الذنوب تب... تب إلى الله.

٣ - الرحمة:

لما خلق الله السموات الأرض، خلق شيئاً أكبر منهما بمئة مرة، خلق الرحمة، وجعل كل رحمة مثل ما بين السماء والأرض، فهي مئة رحمة.

الله... كم أنت كريم يا ربّ، فهل عرفت معنى اسم الله الفقار، الرضخ؟ صاحب الاسماء الحسنى كلها.

(1) ذكره الطبري في «تاريخه» (1/ 73).

وبعد أن خلق الله الكون كله، كتب كتاباً وهو عنده فوق العرش، كُتب فيه: «إن رحمتي سبقت غضبي»⁽¹⁾. سبحانه وتعالى، الحمد لله أننا عبيد لربنا. الحمد لله الذي منّ علينا بباب التوبة.

أمور حسية وأخرى معنوية، كل ذلك هيأه الله لهذا المخلوق العظيم، آدم، أل هذه الدرجة أنت غالٍ وعزيز على الله؟ خلق الله الشمس والهواء والجبال والماء، كل ذلك من أجلك.

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3194)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6903).